الخاتمة

(النتائج والتوصيات)

الخـــاتمـــة

فى ختام هذه الدراسة نعرض أهم النتائج التى كانت ثمـــرةً مـــن ثمـــارِ التنقيـــبِ فى حقول التراث النحوى العربى، والدرس اللغوى المعاصر:

١. أثبتَ البحثُ أن نظريةَ (الأصل والفرع) التى طَبَّقَهَا نحاتُنا القُدَامَى فى قضـــية (الاشتقاق) ذاتُ مقدرةٍ تفسيريَّةٍ عاليةٍ مما أمكن الباحث من تطبيقها على أقســـام الجامـــد فى العربية، وقد أثمر ذلك:

أ. إثبات أن الأنواع الفرعية لكل قسم من أقسام الجامد ليست ســـواءً فـــى درجـــة الجمود.

ب. أن لكلِّ قسمٍ من أقسامِ الجامدِ أصلاً نموذجيًّا أو فردًا نمطيًّا يحمل كل الســـمات الرئيسة للقسم الذى ينتمى إليه، ولذا جعلـــه نحاتُنـــا حَجَـــرَ الزاويـــة فـــى تعريفـــاتهم، ومن ثَمَّ انقاست عليه سائرُ الأنواعِ الفرعية التى افتقدت بعضَ سماتِ الأصلِ المـــذكورِ، ومن جانبٍ آخرَ فإنَّ تلك النظريةُ الأصيلةُ فى الفكر النحوى العربى قد وافقتهـــا نظريـــةٌ لغويّةٌ غربيّةٌ معدودةٌ من إنجازات العقل اللغوى الغربى الحديث هى نظرية (الانحـــراف التدريجى)، مما يُؤكد قيمةَ ما أنجزه علماؤنا القدامى فى هذا الصدد.

٢. قَدَّمَ الباحث تقسيمًا جامعًا فيه حصرٌ شاملٌ لأنواع الجوامد فـــى العربيـــة بعـــد أن كانت مَفُرَّقَةً فى المصنفات النحوية.

٣. بَيَّنَ البحثُ أن اسم الجنس قد يكون جامدًا أو مشتقًا، ومَيَّـــزَ بينهمـــا بوضـــوح فى المقارنة التى عقدها الباحث لهذا الغرض.

٤. أوضح البحث أن اسم الجنس الجامد بأنواعه التى تَمَّ حصرُها قد مَثَّلَتِ البِنْيَـــة الأساسية للغة فى تصوُّرِ مفرداتِ العالمِ المادى، كما مَثَّلَ من جانبٍ آخرَ ملمحًا من تاريخ العربية فى وضع الألفاظ، باعتبار أن أسماء الأجناس الجامدة هى القُـــدْمى فـــى تـــاريخ الوجود اللغوى.

وينضاف إلى ذلك أن لبعض أنواعه الأخرى (كاسم الجنس الجمعىّ وواحدِه الممتاز بالياء المشددة) وجهًا آخرَ فى التعبير عن التنوع العرقى والثقافى للجنس البشرى بحكـــم ما طرأ على المجتمعات البشرية من تطور اجتماعى وثقافى واقتصادى وسياسىّ.

٥. أثبت البحثُ أن اسم الجنس الجامد هو الأصل الأوّلُ الـذى اتخذتـه العربيـة أُسْوَةً تقيس عليه، توطئةً للقياس الوزنى الذى بلغت به العربية درجة عالية من التجريـد والانضباط والإحكام.

٦. أثبت البحثُ أنَّ ثَمَّةَ تجاذُبًا بين (أسماء الأجناس) و (الجمود)، كمـا أن هنـاك تجاذبًا بين (الجمود) و(الارتجال) و(السماع) و(عدم النقـل) و(الوضـع) و(الاسـتئناف) و(الاختراع) و(الشيوع) و(الإبهام)، وتلك جميعًا سـماتٌ أصـيلةٌ فـى (اسـم الجـنس) على تفاوتٍ فى نسبة تَوَفُّرِها فى كلِّ نوعٍ من أنواعِه.

وفى المقابل وَجَدَ الباحثُ تجاذُبًا واضحًا بين (الأسماء المشتقة) و(القياس).

وينضاف إلى ذلك أنَّ اسمَ الجنسِ الجامدِ الأُحادى – باعتبار الاسمية والجمـود – يتجاذب مع التكسير، باعتباره أقدم جموع العربية لما يمتاز به من الاسمية والارتجالية، وإن مضتِ العربيةُ ببعض أوزانه نحو القياس والانضباط كما فعلتْ مَعَ بعضِ ألفاظِ اسمِ الجنس الجامد الأحادى.

وفى المقابل أيضًا وجدَ الباحثُ ذلك التجاذب بين الصـفات المحضـة والجمـوع السالمة وكلاهما شريكٌ فى القياس، ولذا فإنَّ الصفات التى غلبت عليها الاسمية قد قبلـتْ أن تُجْمَعَ جمعَ تكسير تمكينًا لها فى الاسمية.

٧. بَيَّنَ البحثُ أنَّ أهم الفروق بين أسماء الأجناس الجامدة والأعلام تتمثل فى كون الأولى لا تقبل التغيير بوصفها البِنْيَة الأساسية للغة، ومن ثم كانت بِنَاها الصـرفية هـى النماذج التى اعتمدت عليها العربية فى أبْنِيَة الصرف، أما الأعلامُ فَغَيْرُ مُعَـوَّلٍ عليهـا فى الأبْنِيَة، لأنه يجوز أن يُسَمَّى الرجلُ بما لا نظير له فى الكلام، ومِنْ ثَمَّ كانت الأعلامُ أكثرَ عُرْضةً للشذوذ والتحريف دون أن يُمَثِّلَ ذلك أدنى خطورةٍ علـى اللغـة ودورِهـا فى التواصل.

٨. إذا كان الجمودُ أصلا فى الأسماء فهو طارئٌ على الأفعال بطريق التركيـب، نحو: (حَبَّذَا)، أو استعمالها استعمالا مخصوصًا وهذا أكثرُ ما يكون فى الأفعال الجامـدة السماعية كاستعمال (قَلَّ) للدلالة على النفى أو بِقَصْرِ استعمالِها مع اسمٍ مُعَيَّنٍ كاسـتعمال الفعل الماضى (تباركَ) مُسْنَدًا إلى لفظ الجلالة (الله).

ومن أسباب جمود الأفعال أيضًا نقلُها لأداء معنًى مَخْصوصٍ كـ(نِعْمَ، وبِـئْسَ)، وقد يكون لعاملِ الزمنِ دورٌ فى تجميد بعض الأفعال بإماتة بعض تصـريفاتها، كالفعـل المضارع (يَسْوَى) الذى أُمِيتَ – فى الاستعمال – أمرُه وماضيه.

ومن أسبابه أيضًا استعمالُ الفعل فى معنى نحوى عام كان حَقُّه أن يؤدى بالحروف، كمعنى النفى فى الفعل (ليس)، ومعنى الترجى فى الفعل (عسى)، ومعنى الاستثناء فى الفعل (عدا)... وغيرها، كذا لا يمتنع أن يجتمعَ أكثرُ من سببٍ للجمود فى الفعل الواحد.

٩. إنَّ طروء الجمود على الأفعال جعل ألفاظَها محصورةً – بصرف النظر عن القليل الذى اُخْتُلِفَ فيه – بحيث أمكن رصدُهَا وحصرُ ألفاظها على المستوى الصرفى، كما أنَّ أصالة الأسماء فى الجمود جعل حَصْرَها مُتَعَذَّرًا، فضلا عن أنَّ تحوُّلاتِها الترددية بين الجمودِ والوصفيَّةِ جَعَلَ هذا الضَّرْبَ أيضًا مُتَعَذَّرَ الحصر لكونه خاضعًا للكلام المُنْجَزِ وهو غيرُ محصورٍ بطبيعة الحال.

١٠. إن جمود الفعل بِنْيَةً صرفيَّةً ينعكس أثره على التراكيب التى يَرِدُ فيها، إذ ينجم عن ذلك تثبيت / تجميد العلاقات النحوية بين الكلمات، وهو ما يسميه النحاة (الرتبة المحفوظة) بما يعنى التزام عناصر الجملة ترتيبًا إجباريًّا لا يقبل التقديم أو التأخير وفقًا للضوابط التى حَدَّدها النحاة، وتلك – أيضًا – سمةٌ عامةٌ فى معظم التراكيب التى محورُها غالبُ الجوامدِ المَبْنِيَّة، كما هو ظاهرٌ فى بعض الأدوات النحوية، كالشرط والاستفهام والنفى... وغيرها.

١١. أوضح البحث أن الجمود حين يلحق بعض الأفعال يُزِيلُ بعض خصائصها الفعلية من جانبٍ، ويكسبُها – من جانبٍ آخرَ – بعضَ خصائصِ الاسميةِ على نحو ما رأينا فى تصغير فعل التعجب، مثل: (ما أُمَيْلِحَهُ!)، و(ما أُحَيْسِنَهُ!).

وبَيَّنَ البحثُ أيضًا أن هذه السمات الاسمية اللاحقة ببعض الأفعال لا تُخْرِجُهَا عن بابها الأصيل، وهذه النتيجة من ثمارِ جمعِ كلِّ فصائل الكلم الموصوفة بالجمود أو عدم التصرف تحت مصطلح جامعٍ وشاملٍ هو (الجوامد)، والذى رجَّحَ ذلك أيضًا – بالنظر إلى تاريخيّة المصطلح – أنَّ مصطلح (الجمود) قد بسط سلطانه على كل أنواع الكلم التى تميزت بالجمود أو عدم التصرف، ولهذا آثَرَهُ الباحثُ مُصْطَلَحًا جامعًا لكل فصائل الجوامد التى يعالجها.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن النظر إلى ما وُصِفَ بالجمود فى العربية عَبْرَ (عَدَسَةِ) مصطلحِ (الجامد) قد أمكننا من تفسير بعض الخصائص الاسمية التى توفرت فى فصائل كلمية ليست من باب الأسماء كما هو الحال فى أسماء الأفعال التى لحقتها علاماتٌ اسميةٌ من قبيل: التأنيث والجمع والتنوين و... دون اضطرارٍ إلى سَلْخِهَا عن بَابِها تَعَسُّفًا، كما

فَسَّرَ لنا أيضًا أسبابَ انتقالِ بعضِ الكلماتِ الأصيلةِ فى الاسمية كالمصادر والظروف لتلحق بباب اسم الفعل المذكور.

١٢. بَيَّنَ البحثُ أنَّ أصالة كلِّ حرفٍ فى بِنَى (حروف المعانى) تعكس صورةً من أقسى صور التحجُّر، ومَظْهَرًا من أبعدِ مظاهرِ الجمودِ اللغوىِّ، فقد اجتمعَ فى كلِّ ألفاظِ هذا البابِ سِمَتَا (الجمودِ، والبناءِ)، والمناسبة الجامعة بينهما أن (الجمود) يعنى لزوم بِنْيَةِ الكلمة صورة واحدة من حيث تكوينها الصرفىّ، كما أن (البناء) يعنى – كما يقول ابنُ جنى – لزوم آخر الكلمة ضَرْبًا واحدًا من السكون أو الحركة، لا لشىء أحدث ذلك من العوامل.

والمناسبةُ المذكورة تُفَسِّرُ السببَ فى اجتماع هاتين السمتين فى أغلب فصائل الجوامد.

١٣. كانت قواعد النحويين الأصولية هى الضابط فى إنتاج مصطلح (المسافة النحوية) الذى استعمله الباحث فى تفسير السبب الذى جعل العربية تُلْحِقُ بـ(حروف المعانى) بعضَ الأسماءِ والأفعالِ لتقوم بوظيفتها بناءً على خصائصها الصرفية، وهو ما ألمح إليه ابن جنى فى عبارته الأصولية: (واعلم أنه ليس شىءٌ يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحِظًا وعلى صددٍ من الهجوم عليه).

وهذا الخروج لا يرفع اللاحق إلى مرتبة الأصل، وهو ما قرره النحويون فى قاعدتهم الأصولية: (الفروع أبدًا تنحطُّ درجةً عن الأصول)، وقد كان مصطلح (المسافة النحوية) هو وسيلة الباحث لقياس هذه الدرجة المذكورة لكونها مستوياتٍ متعددةً.

١٤. أوضح البحثُ أنَّ الجوامدَ – بطبيعتها الارتجالية – غيرُ مُهَيَّأة للانتظام فى خط التسلسل الاشتقاقى القياسى، ومن ثَمَّ رأى الباحث أن لفظ (التشقيق) يلائم مرحلة التوليد الأولى من الجامد، بحيث تكون هذه الصيغة المولَّدة هى بابُ الدخولِ إلى سلسلة المُشْتَقَّاتِ القياسيةِ التى ينطبق عليها مصطلح (الاشتقاق) تمام الانطباق.

وخَلَصَ الباحثُ من ذلك إلى أن تشقيقات الجوامد هى محاولة العربية الأولى فى التشقيق البنيوى، وهى – بذلك – قد عَبَّدَتْ لِلْعَرَبِيَّةِ طريقَ الاشتقاق القياسى، حتى قيل: إنَّ الاشتقاقيّةَ هى سمةُ العربيةِ الغالبةُ.

١٥. أثبت البحث أن نحاتَنَا القُدَامَى كانوا على وعيٍ عميقٍ بطبيعة ظاهرة الجمود وكثيرٍ من خصائصِها الدقيقة وإن جاءت مُفَرَّقةً فى ثنايا مصنفاتهم، على أنَّ هناك

مِن نحاتِنَا القُدَامى مَنْ كانوا أكثرَ التفاتًا إلى ملامح هذه الظاهرة، ويأتى فى صَدْرِ هؤلاء: ابن يعيش والرضى والشاطبىّ.

١٦. أفاد الباحث من فكرة ابن جنى عن (التراجع عند التناهى) التى طَبَّقَهَا على ثنائية التذكير والتأنيث مما أعان الباحث على تطبيقها على ثنائية الجمود والوَصْفِيَّة، وخَلَصَ من ذلك إلى أنَّ التناهى فى الوصف يتراجع به إلى حالةٍ من الجمود على نحو ما رأينا فى تصغير الوصف أو وصفه مما يُضْفِى عليه طابَعًا اسميًّا كان من آثاره قصوره عن العمل لبُعْدِهِ عن مشابهةِ الفعلِ بِنْيَةً صرفيَّةً بتصغيرِه، وسمةً نحويَّةً بوصفه.

١٧. بَيَّنَ البحث أن فى العربية – حَصْرًا – ثلاثةَ مساراتٍ رئيسةٍ للتحوُّلاتِ الترددِيَّةِ بين الجمودِ والوصفيةِ: دلالية، وبنيوية، وموقعية.

وقد كان فى كل مسارٍ رئيسٍ مساران فرعيان مزدوجان من الوصفية إلى الجمود ومن الجمود إلى الوصفية، وقد بَيَّنَ تفصيلُ القولِ فى هذه المسارات أنَّ نحاةَ العربية القدامى كانوا على وعيٍ دقيق بطبيعة هذه التحولات على اختلاف مساراتها ومستوياتها، غير أن كثيرًا منها كان يأتى ذِكْرُهُ عَرَضًا فى ثنايا مصنفاتهم، فإنْ كان للباحث من جهد فهو جمع شتاتها وتقديمها فى صورة متكاملة فى إطار رؤيته لظاهرة الجمود فى العربية.

١٨. إن تحولات الكلمة – فى مستوى الموقعية – قد زادها ثراءً فيما أنتجته من دلالات بطريق التأويل، حيث أعارتها الموقعية أقنعةً متعددةً أعانتها على الاستمرار فى أشكال مختلفة من الحيوات.

والتَّعْدُّدُ المذكورُ قد أوقعَ الكلمةَ فريسةً للتنازُعِ الإعرابىِّ بَيْنَ تأويلات الجمود والوصفية، وهو مجالٌ خصبٌ متنوعُ الرُّؤَى كما بدا فى تأويلات المُعْرِبِين والمُفَسِّرِين لمثل هذه الكلمات حين تقع فى آى الذكر الحكيم.

١٩. بَيَّنَ البحثُ أنَّ للمجاز دورًا كبيرًا فى التطور الدلالى للبِنَى من الجمود إلى الوصفية فى أسماء الأجناس والأعلام على السواء.

٢٠. أوضح البحث أنَّ المخزونَ الزَّمَنِىَّ فى بِنْيَة الكلمة كان له أثرٌ عميقٌ فى التحولات من الوصفية إلى الجمود، فقد يصيبُ الكلمةَ – مع تطاول العهود – التحجُّرُ بحيث يَنْضُبُ منها كلُّ أثرٍ للوصفية فى الاستعمالات التراثية والمعاصرة على نحو ما رأينا فى كلمة (الصحراء) التى طوت بِنْيَتُهَا الرقيقة عصورًا وأزمنةً من التحولات.

وقد بَيَّنَ البحثُ أن بعضَ نحاتِنا الأفذاذِ كالرضىّ قد نَبَّهَ إلى هــذه الفكــرة التــى قد يَتَصَوَّرُ بعضُ الباحثين – ولهم الحقُّ فى ذلك – أنها ابنةُ الدرسِ اللغــوى الحــديث، أو ثمرة من ثمار الدرس اللغوى المقارن الذى سطع نــوره فــى أوربــا إبَّــان القــرن الثامن عشر على أبعد تقدير.

ينبغى – إذن – أن ننظر إلى أسلافنا بمزيد من الاهتمام والتقدير والإكبار.